١٧

اليمن

بارح ابن بطوطة مكة إلى جدة وفى نيته زيارة اليمن عن طريق البحر ، وتلك كانت أول تجربة لابن بطوطة فى ركوب البحر ، ولهذا فهى حادث جدير بالملاحظة فى سلسلة رحلاته ، ويزيد من أهميتها فى نظرنا أنه ركب جِلْبَةً من جِلَبِ اليمن ، والجِلْبَةُ سفينة متوسطة الحجم ، وقد اشتهر ببنائها أهل اليمن وسواحل البحر الأحمر ، وجمعها جِلاَب وجِلَب ، والجِلْبَةُ كانت أيضاً سفينة ذات عمق يستعمل باطنها لخزن الطعام والماء والبضائع ، وتكون حياة الناس على ظهرها .

وكان مع ابن بطوطة فى الجِلْبَة الشريف منصور من آل نُمَى حكام مكة ، ويستوقف نظرنا تصرُّف يدهشنا لأول وهلة من هذا الأمير ، ولكننا ينبغى أن نعلم أنه كان التصرف الطبيعى من جانب الأمراء وأصحاب الأمر ، وهو أنهم كانوا يرون أن لهم الحق فى أن يأخذوا من أموال الناس وأشيائهم ما يريدون ، بل كانوا يرون أنهم إذا لم يأخذوا شيئاً فذلك تفضُّل منهم جدير بأن يُقابَل بالشكر.

والحكاية أن هذا الأمير أراد من خَدَمِهِ أن يصنعوا له طعاماً ، فأمر أحد غلمانه بأن يأتيه بعُدَيلة دقيق - وهى نصف حمل - وبُطَّة سمن « يأخذها من جِلَب أهل اليمن ». والبُطَّة إناء صغير معدنى كانوا يستعملونه للزيت

والزبد والسمن وما أشبه ، فكانوا يقولون : بُطَّة زيت ، وبُطَّة سمن ، وكانت البُطَّة تُستخدم قنديلاً ، فيدخلون فيها فتيلاً يصل إلى الزيت ، ثم يوقدون الفتيل .

وذهب الغلام وأخذ عُدَيلة الدقيق ، وكان من سوء طالع التاجر صاحبها أنه كان قد دَسَّ فيها عشرة آلاف درهم نقرة، أى: فضة ، وتلك كانت طبيعتهم فى نقل أموالهم ولا نقول تهريبها ، لأن الدول لم تكن دولاً بالمعنى المعروف اليوم ، بل كانت استبداديات تقوم على نهب أموال الناس، فكان همُّ الناس إخفاء أموالهم عن هؤلاء الحكام ! وها نحن أولاء نحكى مثلاً من تصرُّفهم ونظرتهم إلى أموال الناس فنقول إن التجار لـمَّـا رأوا تلك العُدَيلة الحاوية للفضة قد وقعت فى يد ذلك الأمير خافوا عليها ، وكلَّموا ابن بطوطة فى أن يتحدث إليه فى ردِّها مستشفعين فى ذلك بمكانه عند الأمير .

قال ابن بطوطة : « فأتيته وكلَّمته فى ذلك وقلت له : إن للتجار فى جوف تلك العُدَيلة شيئاً فقال : إن كان سُكَّراً فلا أرده إليهم ، وإن كان سوى ذلك فهو لهم ، ففتحوها فوجدوا الدراهم ، فردُّوها عليهم وقال لى: « لو كان عجلان ما ردَّها ! » . وعجلان هو ابن أخيه رُمَيْثة وكان قد دخل فى تلك الأيام دار تاجر من أهل دمشق قاصدٍ لليمن ، فذهب بمعظم ما كان فيها ، وكان عجلان أمير مكة على هذا العهد ، وقد صلح حاله وأظهر العدل والفضل » (ص٢٣٧) وهو من آل جماز بن نُمَى الذين ذكرناهم..

العواصف تلقى بابن بطوطة على ساحل إفريقية

فلمَّا كانت السفينة وسط البحر هبَّت عليها ريح عاصف فغيَّرت اتجاهها ، وبدلاً من أن ترسو فى أحد مراسى اليمن « خرجنا فى مَرْسَى يُعرف برأس دوائر فيما بين عيذاب وسواكن ، فنزلنا به ، ووجدنا بساحله عريش قصب على هيئة مسجد ، وفيه كثير من قشور بيض النعام مملوءة ماء فشربنا منه وطبخنا » .

ومعنى ذلك أن ابن بطوطة بدلاً من أن يصل إلى اليمن وصل إلى ساحل السودان على الضفة الأخرى لبحر القلزم ، أى : البحر الأحمر ، ولم يستنكر ذلك ابن بطوطة ولا هو استاء منه ، فهو رجل متطلع لرؤية الدنيا والناس، وسواء عنده أرض اليمن أو أرض السودان ، وسواء عنده أهل اليمن أو البجاة .

البجاة

والبجاة كانوا شعباً قائماً بذاته يسكن سواحل البحر الأحمر من ساحل صعيد مصر عند أسوان إلى زيلع من ساحل السودان - إذ ذاك - ومازالت بقاياهم إلى اليوم تُسمَّى بالبشارية .

وهم شعب نشيط ذكى فى التجارة وهو يتولى أمورها فى سواحل مصر والسودان ، ويتنقلون بين البلدين إلى يومنا هذا بكل حرية ، وكانوا قد أسلموا قبل أن يسلم أهل السودان الشمالى لكثرة هجرة العرب إلى بلادهم عبر البحر الأحمر من تهامة وعسير واليمن .

قال ابن بطوطة : « وهم سكان تلك الأرض ، سود الألوان ، لباسهم الملاحف الصفر ، ويشدُّون على رءوسهم عصائب حمراء فى عرض الإصبع، وهم أهل نجدة وشجاعة، وسلاحهم الرماح والسيوف ، ولهم جمال يسمُّونها الصهب يركبونها بالسروج فاكترينا منهم الجمال ، وسافرنا معهم فى برية كثيرة الغزلان ، والبجاة لا يأكلونها ، فهى تأنس إلى الآدمى ولا تنفر منه » (ص ٢٣٨).

وفى بلاد البجاة وجد ابن بطوطة قوماً من مهاجرة العرب يُسمَّون ببنى كاهل قد اختلطوا بالبجاة وتكلَّموا لسانهم .

جزيرة سواكن

ثم انتقل ابن بطوطة ومن معه إلى جزيرة سواكن ولم يكن ميناء سواكن المعروف اليوم قد أُنشئ بَعْدُ ، وكانت جزيرة سواكن تابعة لصاحب مكة إذ ذاك، إذ كان يحكمها الشريف زيد بن نُمَى « وأبوه أمير مكة وأخواه أميراها بعده، وهما عُطيفة ورُميثة اللذان تقدَّم ذكرهما ، وصارت إليه من قِبَل

البجاة ، فإنهم أخواله ، ومعه عسكر من البجاة ، وأولاده كاهل وعرب جهينة » .

بحر القلزم

ومن جزيرة سواكن ركب ابن بطوطة ومن معه البحر إلى اليمن ، وكلامه عن البحر الأحمر شبيه بكلام المسعودى والإدريسى ، وكان الناس فى الماضى يتوهمون أن البحر الأحمر بحر خطر كثير النتوءات الخافية تحت عمق قليل من الماء ، فترتطم السفن وهذه النتوءات ، والإدريسى يسمِّيها القالات والتروش .

ولهذا كانت السفن لا تسير فى هذا البحر إلا بالنهار وترسو عند شاطئ أىِّ جزيرة فى الليل ، والسبب فى هذه السمعة السيئة هو سوء بناء السفن نفسها ؛ فقد كانت ألواح الخشب تُخاط بالقنب أو القنبار وهو قشر شجر النارجيل، ولا تُدَقُّ بالمسامير ؛ إذ كان الناس يعتقدون أن حجر المغناطيس راقد فى قاع البحر الأحمر ، فإذا سارت فيه اجتذب المغناطيس المسامير فتفكَّك المركب !

ثم إن السفن كانت تسير بجانب الشواطئ ، وبجانب الجزر فى وسط البحر ، ومياه هذه السواحل دائماً ذات نتوءات خطرة تحت الماء . وجدير بالملاحظة أن طبعة ابن بطوطة المتداولة الآن (وهى طبعة دار التراث فى بيروت سنة ١٩٦٨م) تحرِّف لفظ القالات فتجعله النبات وكأنها كانت فى الأصل : القلات .

ميناء حَلْى فى اليمن

ووصل ابن بطوطة إلى ميناء حَلْى فى اليمن ، وقد عبر البحر الأحمر من سواكن إلى حَلْى فى ستة أيام ، وهى سرعة لا بأس بها . وكانت تسكن منطقة حَلْى طائفتان من عرب اليمن هما بنو حرام وبنو كنانة ، وهناك لقى ابن بطوطة رجلاً زاهداً أصله من الهند يسمَّى « قبولة الهندى » وحوله أتباعه يقضون حياتهم فى عبادة وصلاة ، قال ابن بطوطة : « ولقد كنت أردت الإقامة معهم باقى عمرى، فلم أوفَّق لذلك والله تعالى يتداركنا بلطفه وتوفيقه » .

صنعاء

ثم يعود ابن بطوطة إلى البحر ، ويركبه محاذياً للساحل فيمر بمَرْسَى الحادث ، ولا ينزل به ، ثم مَرْسَى الأبواب ثم إلى زَبيد ، وعند زَبيد يتحدث عن صنعاء ، فيقول إن بينها وبين زبيد أربعين ميلاً ، أى : نحو ثمانين كيلومتراً ، وهو يتحدث عن صنعاء وهو بعد فى زَبيد ، ويُطنب فى مدح صنعاء ويتحدث عن بساتينها ومياهها وفواكهها من الموز وغيره ، ويقول إنها بَرِّيَّة لا شَطِّيَّة ، ويمتدح شمائل أهلها وحسن أخلاقهم ، ويتحدث عن خروجهم أيام السبت للنزهة فى الخلاء ومعهم الطعام وأدوات الطرب وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلاوات .

نساء اليمن

وينتهز هذه الفرصة للتحدث عن نساء اليمن فيقول : « إن لهنَّ الجمال الفائق ، وللغريب عندهنَّ مزية ، ولا يمتنعنَ من تزوُّجه كما تفعل نساء بلادنا (يريد نساء المغرب) ، فإذا أراد السفر خرجت وودَّعته ، وإن كان بينهما ولد فهى تكفله ، وتقوم بما يجب له إلى أن يرجع أبوه ، ولا تطالبه فى أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها ، وإذا كان مقيماً فهى تقنع منه بقليل النفقة والكسوة ، لكنهنَّ لا يخرجنَ من بلدهنَّ أبداً ، ولو أعطيت إحداهنَّ ما عسى أن تُعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل » (ص ٢٤٠).

ولنا هنا ملاحظتان : الأولى هى أن ابن بطوطة لا يكاد يصف نساء أىِّ بلد يزوره إلا بالحسن ، ولا يفوته أبداً أن يقف عند نساء البلد ويُطرى محاسنهنَّ ، وإذا جاز لنا أن نستنتج من هذا شيئاً فهو أن الرجل كان مفتوح الشهية من هذه الناحية يهضم ذوقه كل صنف من أصناف بنات حواء ، وذلك طبعٌ فى الرجل مريح ، فهو لا يشترط ولا يتعلل ولا يدقِّق ، فالكل عنده حسناوات؛ وذلك إذا كان يكشف عن ذوق غير مرهف من ناحية فإنه يكشف فى الوقت نفسه عن صحة فى الرجل جنسية شأنه فى ذلك شأن الرجل القوى المعدة السليم جهازه الهضمى ، فهو يأكل أىَّ شىء ويهضم أىَّ طعام ، بخلاف الرجل المريض المعدة الذى لا تهضم معدته إلا الطيب

الناضج المتقن من الطعام ، وأىُّ عيب فى المأكل يتعبه وينفِّره .

أما الملاحظة الأخرى فهى أن الرجل - على الرغم من ذلك - لم يكن بزير نساء ولا شديد الولع بهنَّ ؛ إنما هو كان رجلاً ذا طبيعة سليمة قوية تحتمل الكثير . وقد رأينا الكثير من مظاهر قوته البدنية واحتماله الأمراض وقدرته على الصمود لمضانكها ، فكم من مرة رأيناه يصاب بالمرض الثقيل ويُعَافَى منه ، ويركب الحصان فى أثناء الرحلة وهو مريض حتى لَيشدَّ جسده على الدابة حتى لا يقع وهى تسير به !

ومع ذلك فقد كان الرجل شديد الإحساس بالنظافة لا يحتمل القذر ولا يطيقه ، فهو لا يُقبل أبداً على طعام يشكُّ فى نظافته أو نظافة الوعاء الذى يُقدَّم فيه ، وإذا دخل مدينة غير نظيفة عَجَّلَ بالخروج منها ، وقد حدث له ذلك مراراً فى أثناء رحلته .

كان ابن بطوطة رجلاً سليم الطبع والبدن ، شديد الولع برؤية الدنيا والناس ، مقبلاً على الدنيا دون طمع فى ترف أو تكلُّف فى أىِّ شىء من أشياء هذه الدنيا ، وكل ما فيها يعجبه ويَشُوقه.. إلا القذر وسوء الخُلُق وقلة الإيمان.

* * *